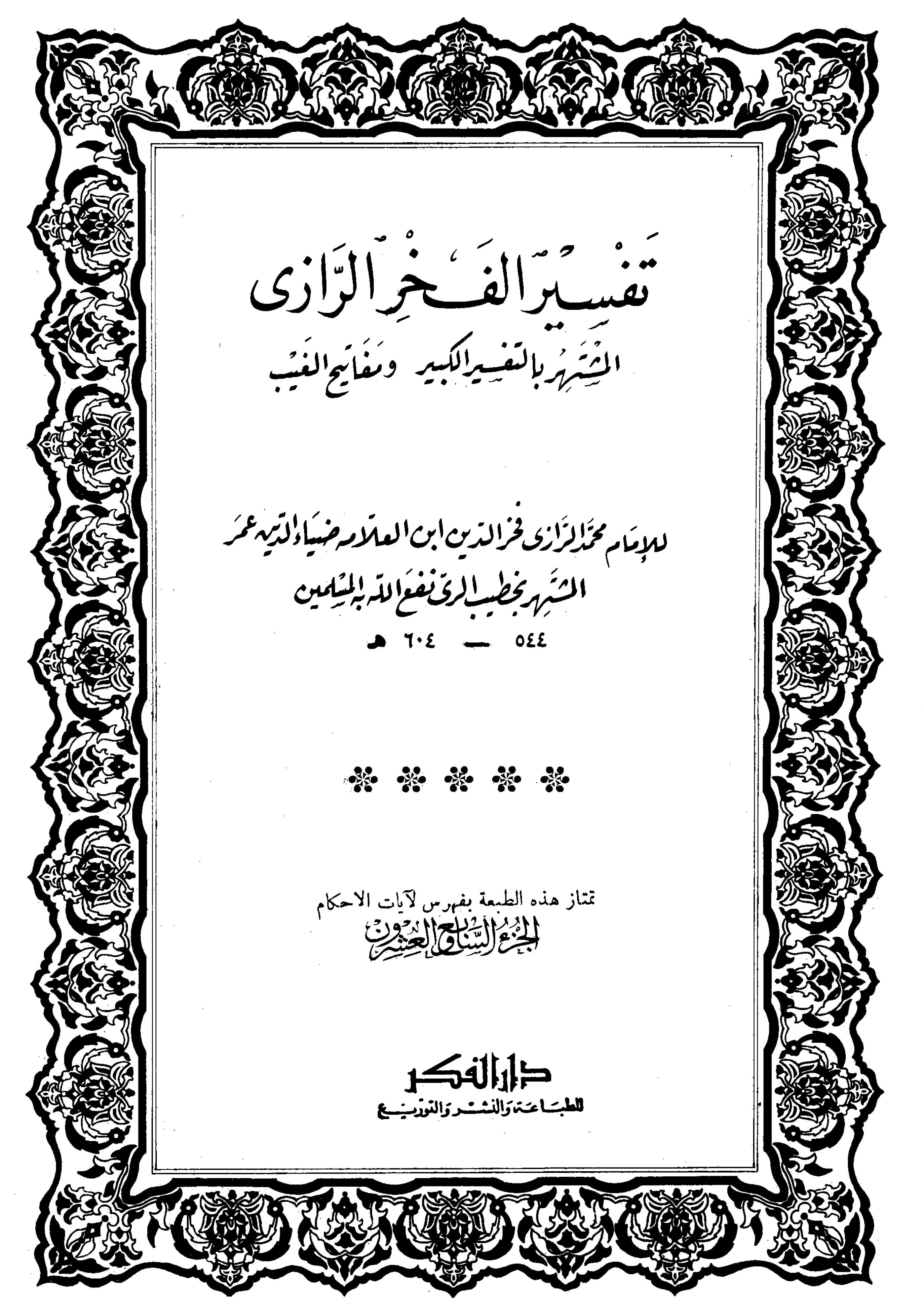


تفسير الفخر الرازي

المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب

للإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر

المشتهر بخطيب الري نفع الله به المسلمين

٥٤٤ — ٦٠٤ هـ

* * * * * *

تمتاز هذه الطبعة بفهرس لآيات الاحكام

الجزء السابع والعشرون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

ثم قال تعالى (ذلك هو الفضل الكبير) وهذا تصريح بأن الجزاء المرتب على العمل إنما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق .

ثم قال (ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات) قال صاحب الكشاف قرىء (يبشر) من بشره (ويبشر) من أبشره (ويبشر) من بشره .

واعلم أن هذه الآيات دالة على تعظيم حال الثواب من وجوه : (الأول) أن الله سبحانه رتب على الإيمان وعمل الصالحات روضات الجنات ، والسلطان الذى هو أعظم الموجودات وأكرمهم إذا رتب على أعمال شاقة جزاء ، دل ذلك على أن ذلك الجزاء قد بلغ إلى حيث لا يعلم كنهه إلا الله تعالى (الثانى) أنه تعالى قال (لهم مايشاءون عند ربهم) وقوله (لهم مايشاءون) يدخل فى باب غير المتناهى لأنه لادرجة إلا والإنسان يريد ماهو أعلى منها (الثالث) أنه تعالى قال (ذلك هو الفضل الكبير) والذى يحكم بكبره من له الكبرياء والعظمة على الإطلاق كان فى غاية الكبر (الرابع) أنه تعالى أعاد البشارة على سبيل التعظيم فقال (الذى يبشر الله عباده) وذلك يدل أيضاً على غاية العظمة ، نسأل الله الفوز بها والوصول اليها .

واعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد ﷺ هذا الكتاب الشريف العالى وأودع فيه الثلاثة أقسام الدلائل وأصناف التكاليف ، ورتب على الطاعة الثواب ، وعلى المعصية العقاب ، بين أنى لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعاً عاجلا ومطلوباً حاضراً ، لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد ﷺ من هذا التبليغ المال والجاه فقال ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر الناس فى هذه الآية ثلاثة أقوال :

﴿الأول﴾ قال الشعبى أكثر الناس علينا فى هذه الآية ، فكتبنا إلى ابن عباس نسأله عن ذلك فكتب ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان واسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم إلا وقد ولده فقال الله (قل لا أسألكم) على ما أدعوكم إليه (أجراً إلا) أن تودونى لقرابتى منكم ، والمعنى أنكم قومى وأحق من أجابنى وأطاعنى ، فاذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حق القربى ولا تؤذونى ولا تهيجوا على .

﴿والقول الثانى﴾ روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن النبى صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس فى يده سعة ، فقال الأنصار إن هذا الرجل قد هداكم الله على يده وهو ابن أختكم وجاركم فى بلدكم ، فاجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوا ثم أتوه بفرده عليهم ، فنزل قوله تعالى (قل لا أسألكم عليه أجراً) أى على الإيمان إلا أن تودوا أقاربى فحثهم على مودة أقاربه .

﴿ القول الثالث ﴾ ما ذكره الحسن فقال : إلا أن تودوا إلى الله فيما يقربكم إليه من التودد إليه بالعمل الصالح ، فالقربى على القول الأول القرابة التى هى بمعنى الرحم وعلى الثانى القرابة التى هى بمعنى الأقارب ، وعلى الثالث هى فعلى من القرب والتقريب ، فإن قيل الآية مشكلة ، ذلك لأن طلب الأجر على تبليغ الوحى لا يجوز ويدل عليه وجوه :

(الأول) أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام : أنهم صرحوا بنفى طلب الأجرة ، فذكر فى قصة نوح عليه السلام (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين) وكذا فى قصة هود وصالح ، وفى قصة لوط وشعيب عليهم السلام ، ورسولنا أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فكان بأن لا يطلب الأجر على النبوة والرسالة أولى (الثانى) أنه صلى الله عليه وسلم صرح بنفى طلب الأجر فى سائر الآيات فقال (قل ما سألتكم من أجر فهو لكم) وقال (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) (الثالث) العقل يدل عليه وذلك لأن ذلك التبليغ كان واجباً عليه قال تعالى (بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) وطلب الأجر على أداء الواجب لا يليق بأقل الناس فضلا عن أعلم العلماء (الرابع) أن النبوة أفضل من الحكمة وقد قال تعالى فى صفة الحكمة (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) وقال فى صفة الدنيا (قل متاع الدنيا قليل) فكيف يحسن فى العقل مقابلة أشرف الأشياء بأخس الأشياء (الخامس) أن طلب الأجر كان يوجب التهمة ، وذلك ينافى القطع بصحة النبوة ، فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز من النبي ﷺ أن يطلب أجراً البتة على التبليغ والرسالة ، وظاهر هذه الآية يقتضى أنه طلب أجراً على التبليغ والرسالة ، وهو المودة فى القربى هذا تقرير السؤال . (والجواب عنه) أنه لا نزاع فى أنه لا يجوز طلب الأجر على التبليغ والرسالة ، بقى قوله (إلا المودة فى القربى) نقول الجواب عنه من وجهين (الأول) أن هذا من باب قوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهـا من قراع الدارعين فلول

المعنى أنا لا أطلب منكم إلا هذا . وهذا فى الحقيقة ليس أجراً لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) وقال صلى الله عليه وسلم «المؤمنون كالبنيان يشد بعضهم بعضاً » والآيات والأخبار فى هذا الباب كثيرة وإذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجباً فحصولها فى حق أشرف المسلمين وأكابرهم أولى ، وقوله تعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) تقديره والمودة فى القربى ليست أجراً ، فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر البتة (الوجه الثانى) فى الجواب أن هذا استثناء منقطع ، وتم الكلام عند قوله (قل لا أسألكم عليه أجراً) .

ثم قال (إلا المودة فى القربى) أى لكن أذكركم قرابتى منكم وكأنه فى اللفظ أجر وليس بأجر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقل صاحب الكشاف عن النبي ﷺ أنه قال « من مات على حب آل محمد

مات شهيداً . ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافراً ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة » هذا هو الذي رواه صاحب الكشاف ، وأنا أقول : آل محمد ﷺ هم الذين يؤول أمرهم إليه فكل من كان أمرهم إليه اشد وأكمل كانوا هم الآل ، ولا شك أن فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشد التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل ، وأيضاً اختلف الناس في الآل فقيل هم الأقارب وقيل هم أمته ، فإن حملناه على القرابة فهم الآل ، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل ، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل ؟ فمختلف فيه . وروى صاحب الكشاف أنه لما نزلت هذه الآية قيل يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ فقال علي وفاطمة وابناهما ، فثبت أن هؤلاء الأربعة أقارب النبي ﷺ وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ويدل عليه وجوه : (الأول) قوله تعالى (إلا المودة في القربى) ووجه الاستدلال به ما سبق (الثاني) لا شك أن النبي ﷺ كان يحب فاطمة عليها السلام قال صلى الله عليه وسلم « فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها » وثبت بالنقل المتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يحب علياً والحسن والحسين وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله (واتبعوه لعلكم تهتدون) ولقوله تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) ولقوله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ولقوله سبحانه (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (الثالث) أن الدعاء للآل منصب عظيم ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارحم محمداً وآل محمد ، وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل ، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب ، وقال الشافعي رضي الله عنه :

يا راكباً قف بالمحصب من منى ‏ واهتف بساكن خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ‏ فيضاً كما نظم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حب آل محمد ‏ فليشهد الثقلان أني رافضي

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (إلا المودة في القربى) فيه منصب عظيم للصحابة لأنه تعالى قال : (والسابقون السابقون أولئك المقربون) فكل من أطاع الله كان مقرباً عند الله تعالى فدخل

تحت قوله (إلا المودة فى القربى) والحاصل أن هذه الآية تدل على وجوب حب آل رسول الله ﷺ وحب أصحابه ، وهذا المنصب لا يسلم إلا على قول أصحابنا أهل السنة والجماعة الذين جمعوا بين حب العترة والصحابة ، وسمعت بعض المذكرين قال إنه ﷺ قال «مثل أهل بيتى كمثل سفينة نوح من ركب فيها نجا» وقال ﷺ «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» ونحن الآن فى بحر التكليف وتضربنا أمواج الشبهات والشهوات وراكب البحر يحتاج إلى أمرين (أحدهما) السفينة الخالية عن العيوب والثقب (والثانى) الكواكب الظاهرة الطالعة النيرة ، فاذا ركب تلك السفينة ووقع نظره على تلك الكواكب الظاهرة كان رجاء السلامة غالباً ، فكذلك ركب أصحابنا أهل السنة سفينة حب آل محمد ووضعوا أبصارهم على نجوم الصحابة فرجوا من الله تعالى أن يفوزوا بالسلامة والسعادة فى الدنيا والآخرة .

ولنرجع إلى التفسير : أورد صاحب الكشاف على نفسه سؤالا فقال : هلا قيل إلا مودة القربى ، أو إلا مودة للقربى ، وما معنى قوله (إلا المودة فى القربى) ؟ وأجاب عنه بأن قال جعلوا مكاناً للمودة ومقراً لها كقوله لى فى آل فلان مودة ولى فيهم هوى وحب شديد ، تريد أحبهم وهم مكان حبى ومحله .

ثم قال تعالى (ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا) قيل نزلت هذه الآية فى أبى بكر رضى الله عنه ، والظاهر العموم فى أى حسنة كانت ، إلا أنها لما ذكرت عقيب ذكر المودة فى القربى دل ذلك على أن المقصود التأكيد فى تلك المودة .

ثم قال تعالى (إن الله غفور شكور) والشكور فى حق الله تعالى مجاز والمعنى أنه تعالى يحسن إلى المطيعين فى إيصال الثواب إليهم وفى أن يزيد عليه أنواعاً كثيرة من التفضيل .

وقال تعالى (أم يقولون افترى على الله كذباً) واعلم أن الكلام فى أول السورة إنما ابتدىء فى تقرير أن هذا الكتاب إنما حصل بوحى الله وهو قوله تعالى (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) واتصل الكلام فى تقرير هذا المعنى وتعلق البعض بالبعض حتى وصل إلى ههنا ، ثم حكى ههنا شبهة القوم وهى قولهم : إن هذا ليس وحياً من الله تعالى فقال (أم يقولون افترى على الله كذباً) قال صاحب الكشاف أم منقطعة ، ومعنى الهمزة نفس التوبيخ كأنه قيل : أيقع فى قلوبهم ويجرى فى ألسنتهم أن ينسبوا مثله إلى الافتراء على الله الذى هو أقبح أنواع الفرية وأفحشها ، ثم أجاب عنه بأن قال (فإن يشإ الله يختم على قلبك) وفيه وجوه (الأول) قال مجاهد يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك قولهم إنه مفتر كذاب (والثانى) يعنى بهذا الكلام أنه إن يشإ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم حتى يفترى عليه الكذب فانه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان فى مثل هذه الحالة ، والمقصود من ذكر هذا الكلام المبالغة فى تقرير الاستبعاد ، ومثاله أن ينسب رجل بعض الأمناء إلى الخيانة فيقول